الصّحافة: الى نجيب بلخوجة

جدارية

الى نجيب بلخوجة

عمر الغدامسي

منذ أيام غادرنا محمد الطالبي بعد أن قال ما قاله في العلن للعامة وللمتلصّصين والتكفيريين، ما كان يخطه بذهنه الباحث والمتقصي للمختصين والمثقفين. وقبله بسنة تقريبا غادرنا محمد الصغير أولاد احمد والذي كان يفوق الطالبي بميزة «الفضيحة» سواء بحكم انه شاعر يقرأ شعره امام جمهور عريض من المعجبين كما من المندسّين والمخبرين، اوايضا بحكم أنه ناثر واعلامي ينشر مقالات ونصوصا الوصول اليها سهل ومتاح ايضا للمعجبين والمؤمنين كما للرافضين و شركاء الله في تعداد ذنوب البشر وحسناتهم.

مات محمد الطالبي وشيّعه الى مثواه الاخير احبته حافظين ومؤتمنين على أثره ولكن تحت نفس هذه السماء التونسية الملبدة بالغيوم كانت تتصاعد أدعية الشر ضده والأحكام الجازمة بنهاية مصيره في جهنم. مات وأصابع التكفير تكاد تنغمس في ذلك التراب الذي سيواري جثمانه ليحوّله إلى جمرات مسعورة. وكذلك كان الأمر مع الشاعر أولاد أحمد. وكذلك سيكون الأمر مع كل فكر حرّ ونقدي تعرفه هذه البلاد.

هذه البلاد التي لم يتوقف تاريخها المعاصر على مكابدة هذا الصراع بين الفكر الحرّ والمجدد والفكر التقليدي المتكلس الذي ينفلت من كل عقال لينتهي الى التكفير وإعداد قوائم الموت والاغتيال. ألم يكن ذلك مصير «الطاهر الحداد»، وإلى حد ما «أبوالقاسم الشابي»؟!

ليس التكفير في اعتقادنا الا ورما سرطانيا في مرحلة متقدمة وهو يستعد لتوديع الجسد الذي يسكنه. لكن ماذا عن ذلك السرطان وهو في مراحله الأولى، ماذا عنه وهو مجرد علكة يحللها الطبيب ويعدد لنا أعراضه فيصفه لنا كمجرد ورم إقصائي، له قدرات ملفتة في تقزيم الاخرين واحتقارهم وشيطنتهم. . ماذا أيها الطبيب هل تراه ورما؟! من شدة الاختلاف في تقييمه وتعييره أصبح وجهة نظر صالحة للاقامة في ندواتنا الفكرية في دور الثقافة وفي بلاتوهاتنا التلفزية. حسنا أيها الطبيب ما نعرفه أن هناك صنفين من السرطان صنف غير قاتل وصنف قاتل. . فهل يمكننا الاستنتاج ان الورم الاقصائي هوسرطان غير قاتل والورم التكفيري هوالقاتل. حسنا ايها الطبيب هل هناك اختلاف بينهما في درجة الالم؟ هل أن العلاج الكيميائي للورم غير القاتل مركب من ماء الورد والعسل مثلا؟هل أن الجسد المصاب بالورم غير القاتل مصنّف كجسد سعيد ، مقارنة بالجسد الاخر الذي يمد جمجمته لرصاصة الرحمة المصحوبة بالتكبير والتي سيطلقها طبعا ذلك الورم القاتل؟!

الاقصاء ورفض الآخر ليستا وجهة نظر بل هما مجرد طاعون لم يكتسب قوته التدميرية بإسم الدين أو العرق أو الايديولوجيا. ليس اكثر. وعندما تتضخم هذه الظاهرة في مجتمع ما وعبر تاريخه وتمسّ من نصفهم، بالنخب فذلك سيكون مؤشرا على أنه مجتمع مسرطن ومؤشر عن قرب موعد مجيء البرابرة بلحيهم الكثة وكتبهم الصفراء وهم يجرون

الات القتل.

لوفتحنا صفحات تاريخنا القريب في الفنون لوجدنا وبسهولة أمثلة عديدة عن صور الاقصاء والتهميش اللذين مارسهما فنانون ضد فنانين والأمر لا يختلف عن بقية الميادين كالمسرح والموسيقى والاداب. وهي صور بعضها مليء بالدمارات وحالات الانتحار والاخصاء.

لن اسرد امثلة. لأن هدفنا الأساسي هنا هوالحفر. كأن اتخيل مثلا مسيرة ضد التكفير وأنا في حشدها يعترضني فنان أو كاتب إمتلك من السلطة ما جعله يمارس كل أنواع التنكيل والإقصاء ضد فنان يفوقه إبداعا والذي هو بدوره موجود في نفس المسيرة تلك ضد التكفير. هذا المشهد ورغم أنه يبدو متخيلا إلا أنه واقعي وبدرجة فجة. بل إن الكثير منا صادفه هنا اوهناك.

من شدة واقعيته الماثلة والمقبولة للجميع لن تجد من يكذبك فقد يقول لك احدهم لا تهوّل الأمر لأنه وببساطة يتعلق بالمنافسة التي قد تتجاوز أحيانا الحدود.

ربما يكون ذلك صحيحا... مجرد منافسة الى حد الدفع بالانتحار البطيء أو السريع وليس التكفير الى حد إقامة الحد..منافسة الى حد الإقامة الأبدية في مستشفى الأمراض العقلية وليس التكفير إلى حد الحكم بالخلع.. المنافسة إلى حد التجويع وليس التكفير الى حد التفجير.

ليس فيما نكتبه تهويل أو رغبة في بناء مقارنات مغلوطة بقدر ما هومبني علي قناعة بأن المجتمعات السوية تبنى من خلال مطاردة كل أشكال العنف والاقصاء الساكنة في اعماقها ، ذلك أن المسألة ثقافية في جوهرها. وإن إحتقار أو عدم الاخذ بجدية الظواهر التي تبدو بسيطة رغم أنها تعبر عن ذهنية قابلة للتمدد والتوارث هو أقرب الى قبول بذرة لمجرد انها متنامية الصغر. بذرة ستينع وتكبر لمجرد اننا باركنا بالصمت والاهمال تلك التربة التي ستزرع فيها.

غدا بدار الفنون بالبلفدير وبفضاء كان ببوفيشة سنحيي الذكرى العاشرة لوفاة نجيب بلخوجة، ذلك الفنان التونسي النادر باصالته وعمق ثقافته ومن وحي علاقتي به على امتداد سنوات طويلة كتبت هذا النص، مستحضرا مسيرته الشخصية كفنان ومستحضرا مسيرة فنان آخر هو عمارة دبش الذي ما كان لي أن اعرف مسيرته لولا نجيب بلخوجة..